التربية الوطنية الاستقلالية
وأثرها فى بناء الأمة
للأستاذ محمد عبد البارى

عماد الامة

عماد الأمة أفرادها . ومتى كانت مواد البناء متينة التكوين سليمة الوضع كان البناء قوياً على احتمال تصاريف الأيام ، والتغلب على صدمات الحادثات . وما مادة البناء فى الجماعة سوى الفرد . فكيف يكون قوياً لتقوى به الأمة ؟

مشاهدات الحاضر

يلوح لى أن استعراض الوقائع لاستخراج الحقائق أقرب سبيلاً إلى صحة الحكم ، وآمن عاقبة من التحليل النظرى المجرد.. وأخذا بهذا فانى أضرب بالانجليز مثلاً للأمة القوية . وأحاول باستعراض بعض الظواهر الوصول إلى سر هذه القوة . وإنى إذ أفعل هذا لست مأخوذاً بقوة السيطر ، ولكنى إنما أتعرف سر قوة الغير لنحتذى مثاله ، ومن قبل احتكت اليابان من نحو خمسة وثمانين عاماً بالغرب ، وآنست منه قوة لاقبل لها بها فداورته ، ثم حرصت على تعرف سر قوته واتخذت سبيله . فلما أحست من نفسها القوة تحررت مما فرض عليها الغرب من قيود ، ثم صارت موضع خشيته ورهبته . والقوى يتقى دائماً التصادم بالقوى .

من أشهر حوادث التاريخ الدستورى ما يسميه الانجليز بالعهد الأعظم ؛ وهو مجموعة قواعد غير منمقة ؛ هى فى الواقع شروط يتقيد بها الحاكم ، وهى تنبئ عن روح استقلالية أصيلة ، ودرجة حرص القوم على المحافظة على ذلك العهد تؤكد أنه وضع عن عقيدة ، وأنه يعبر عن شعور الأمة بحقها وكرامتها وقوتها . فلما هوجم دافعت عنه الأمة عن عقيدة راسخة فانتصرت . حدث أن أحد ملوك انجلترا ، وكان متشبعاً بتعاليم الفيلسوف الانجليزى « هوبز » تقض ذلك العهد باصدار أوامر تخالفه . غير ان أحد الكافة أبى أن يعترف بحق الملك فى المخالفة ، فامتنع عن تنفيذ الأمر . فلما أوذى المعترض ثارت الأمة ، وتخلصت من ناقضى عهدها استمساكا بدستورها ومحافظة على كرامتها

والمعترض لم يصدر إلا عن عقيدة . وكان مستقل الرأى أبى النفس شجاعا بدليل أنه لم يرهب جسامة ما أقدم عليه . ولم يك بالشاذ فى بلده بدليل أن سواد الشعب جاراه وانتصر للحق إلى النهاية . وهذا العمل الخطير لا يمكن أن تأتيه جماعة إلا إذا كانت الروح الاستقلالية قوية فيها ، وكان الشعور بكرامة الانسان غالباً فى أفرادها والاعتداد بالنفس صفة غالبة فى بنيها . كان الفيلسوف « هوبز » ينادى بحق الملك المقدس فى الحكم طبقاً لمشيئته لا استنادا إلى إرادة الأمة . وكان مربياً للملك المشار اليه ، ولكن النفسية الانجليزية لم تهضم هذه التعاليم ؛ وكان يعجبها ما قرره الفيلسوف « لوك » ؛ وهو أن الأمة مصدر السلطات ، وأن الملك يستمد سلطته منها ، وليس صاحب حق مقدس يحكمها طبقاً لهذا الحق المقدس فلا يتقيد بارادتها . فلما تعارضت الفكرتان عملا كانت الغلبة لما يدين به سواد الانجليز ، لأن تربيتهم الاستقلالية أبت عليهم الخضوع لما لا يتفق مع الكرامة الانسانية ، فثاروا دفاعاً عنها وانتصروا لأنهم عملوا عن إيمان راسخ

التربية الاستقلالية مصدر الشجاعة الأدبية والاقدام والشجاعة توحى للمرء بأن يقول « لا » كلما وجب أن يقولها ، و « نعم » كلما وجب أن يقولها ، سواء أكان مخاطباً نفسه أم غيره . والاقدام يدفع المرء الى العمل بما يعتقد مهما كانت النتيجة وقد دلت التجارب على أن العامل عن عقيدة قلما يخفق لأن الايمان الراسخ فى ذاته قوة يعز التغلب عليها

لو لم تكن روح الاستقلال متغلغلة فى نفوس الانجليز لرسخت فيها تعاليم « هوبز » دون تعاليم « لوك » ، ولم تقض العهد وهو الدستور كأنه حادث عادى ، ولاعتاد الحكام التصرف طبقاً لمشيئتهم ، ولكانت الجماعة عرضة من حين لآخر ، للاحتكاك بين أنصار الطغيان وأعوان الحرية ، ولبطؤ سيرها الى الأمام

لكن النفوس كانت متشبعة بالحرية والاستقلال فد عما وضمنته من شروط لتولى حكمها . وأظهرت وجو

بعملها التاريخي . وعرف الحكام منها ذلك فلم يحاولوا نقض العهد وعاشت وعاشوا في هدوء . فاستطاعت الأمة التمتع ببركة الهدوء في ظل الحرية ، وانصرفت بكل قواها الى ترقية شؤونها ورفع مستوى الفرد فبلغت قمة المجد ، وكانت عزيزة الجانب بوجه عام حتى اليوم . تلك حادثة من أبلغ حوادث التاريخ الانجليزي في الدلالة على أن قوة الأمة في تغلغل روح الاستقلال بين الأفراد وفيما ينشأ عن التربية الاستقلالية من شجاعة واقدام

وانا أورد مثلا آخر أدلل به على ما تربح الأمة من تشبع الفرد بروح الاستقلال . ففي الحادث المتقدم كان العمل شعبياً ، وفي الحادث التالي كان العمل فرديا

في سنة ١٨٣٩ نجحت انجلترا في تأليب قوى أوروبا على مصر لتأمن الخطر الذي توهمته من قيام جماعة قوية على ساحلي البحرين الأحمر والأبيض المتوسط . انتهزت الفرصة السانحة بتهديد الجيوش المصرية الآستانة نفسها فأقنعت طائفة من أقوى دول أوربا بالاشتراك معها في حمل « محمد علي » على قبول شروط فرضتها عليه ، وهو الغالب تحد من قوته ، ونجحت بهذا وبث الثورة في سوريا ضد المصريين في الاستيلاء على عكا وفي ضرب الجيوش المصرية بسوريا ضربة حاسمة

فلما تم ذلك بعث القائد العام وهو انجليزي ضابطاً بحرياً انجليزياً لاستطلاع قوة المصريين بالاسكندرية ، وأبحر الضابط فاقتنع عند ما وصل المياه المصرية أن من السهل ضرب الاسكندرية ، ولكنه في نفس الوقت علم من ثقة أن البر يموج بقوة مسلحة تسلحاً عظيما ، وفكر أن الاشتباك مع محمد علي بمصر قد يجر إلى مثل موقعة رشيد سنة ١٨٠٧ ورأى أنه من الممكن التفاهم مع محمد علي على الشروط التي فرضها المتألبون ورفضها محمد علي ، إذا ضمن له الضابط جعل حكومة مصر وراثية ، لما استوثق من ذلك دخل رأساً في مفاوضات مع محمد علي واتفق الطرفان .. ولما أنبأ القائد العام بذلك احتج عليه وأرسل إلى حكومته يحتج ، ولكن الضابط استمسك بوجهة نظره لأنه أيقن بأنه خدم بلاده ودافع عن هذا الرأي لدى الحكومة الانجليزية رأساً وانتصر له وزير الخارجية الانجليزية وأبرم الاتفاق الذي وضع أساسه هو فكان معاهدة لندن سنة ١٨٤٠

والحادث يدل على أن الضابط البحري لم يفهم أنه مجرد أداة بل فهم أنه عنصر فعال في بناء مجد أمته . فلما رأى الفرصة سانحة انتهزها بالرغم من مخالفة هذا التصرف للواجبات العسكرية فلما لم يرض رئيسه عن هذا لم يرهبه سخط الرئيس ولم ينس غرضه ولم يتقهقر وتغلب رأيه أخيراً

نظر الضابط الصغير كما نظرت حكومته إلى جوهر الموضوع لا إلى شكله ، والحادث بالنسبة للحكومة الانجليزية وبالنسبة للضابط البحري دليل على تأصل الروح الاستقلالية وعلى عظم أثر هذا التأصل في صحة الحكم على الأشياء

تلك الروح الانجليزية التي استعرضنا بعض مظاهر عظمتها هي التي أبت عليهم الخضوع لتهديد اسبانيا ، فلم يخرجهم هول قوة الأرمادا « اسم الأسطول الاسباني » عن رباطة جأشهم وكانت الغلبة لهم ، وهي نفسها التي أبت عليهم الخضوع لنابليون ، وهي التي تلهمهم قبول حكومة المحافظين تارة وقبول حكومة العمال تارة أخرى مع ما بين مبادئ الحزبين من تفاوت ، وهي التي جعلت القاضي الانجليزي مضرب المثل للقاضي الصالح ؛ وهي بالاختصار التي وضعت الانجليز للآن هذا الوضع الممتاز في التاريخ العصري

عبر التاريخ

ضربت المثل بالانجليز عامدا لأنا نخاطب القوم اليوم في تحديد علاقاتنا بهم . وأضرب المثل بالعرب لأني أكتب هذه الكلمة يوم الاحتفال بمستهل العام الهجري

نشأ العرب على الحرية والاستقلال لا يشوبهما إلا خضوعهم لأوهام باطلة وعادات مرذولة ؛ فلما تطهرت نفوسهم باعتناق الدين الحنيف تحرروا من قيود العادات والأوهام التي لاتتفق والكرامة الانسانية

إن نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم من أروع أمثلة التاريخ في استقلال الرأي والصلابة في الحق ؛ ولكنه نبي يعمل في حدود رسالته بما يوحى به الله ، بيد أنه بث في أصحابه تعاليمه المطهرة للنفس ، والملهمة لروح الاستقلال ، فكان هذا مع نشأة العرب الحرة السبب في سرعة تقدمهم بعد اعتناق الاسلام

في أولى غزوات النبي ارتأى وهو في مركز القائد الحربي أن ينزل بقوته في نقطة معينة ، ولكن أحد أتباعه اعترض